الطلسم لولتر سكوت

بقلم :
الأستاذ محمود محمود

١ — شيء عن حياة الكاتب

كان من أثر الثورة الفرنسية أن تحرر الفكر الأوربى وانطلق من قيوده القديمة ، وظهرت الحركة الرومانتيكية فى الأدب الغربى ، وأخذ أتباع هذا المذهب الجديد ينادون بحرية الأديب فى انتقاء اللفظ ، وإطلاق الخيال فى كل موضوع ، وتحطيم كل قيد من قيود الأدب الكلاسيكى العتيق .

ومن زعماء هذه الحركة فى الأدب الإنجليزى السير وولتر سكوت . وقصة حياة هذا الرجل الذى ولد فى عام ١٧٧١ وانتهت حياته فى عام ١٨٣٢ شبيهة باحدى قصصه الخالدة — هى قصة رجل مكافح لا يؤمن باليأس مع الحياة ، ذى عزيمة جبارة ، يرتفع إلى أوج الثراء والشهرة الأدبية ، ثم يخبو نجمه ليضىء مرة أخرى بالجهد المتواصل والعمل المستمر ، لا يعبأ بصروف الحياة مهما ألمت به الكوارث أو أحاطت به المآسى .

وقد نال وولتر سكوت شهرته أولا كشاعر ، وبدأ حياته الأدبية بالأغانى الشعبية التى سرعان ماترددت على كل لسان وذاعت بين الناس أجمعين . وكان يسوق فى هذه الأغانى طرفاً من القصص التاريخى القديم ، مشيداً بذكر الأبطال والمعارك التى تسجل بطولة الإنسان . وظل سكوت فى أعين القراء زعيم الشعراء فى بريطانيا ، حتى ظهر اللورد بيرون وبزه واجتذب منه كثيراً من المعجبين بأناشيده الشعبية ، فانصرف سكوت من الشعر إلى النثر ، وهجر الأغانى إلى الرواية ، وكان فى قصصه الروائى — كما كان فى شعره — يعمد إلى إحياء التاريخ الأوسط ويرى فيه مجالا واسعاً لارسال الخيال وابتداع القصص .

وفى مجال القصة استطاع أن يحرز نجاحاً قل من كان يحاول أن ينافسه فيه .

ثم أراد القدر أن يظهر وجهاً آخر من شخصية الرجل ، وكان ذلك وهو فى الخامسة والخمسين من عمره — وأقصد وولتر سكوت « الإنسان المكافح » — وذلك بعد ما فقد الرجل ثروته وكل ما يملك ، وغرق فى بحر من الديون ، وتدهورت صحته ، وفقد شريكة حياته ، بعد ثلاثين عاماً من عشرتها . ولكن سكوت « الإنسان المكافح » دأب على نضاله مع الحياة ، لا يتطرق إلى نفسه يأس أو ملل ، ولا يكف عن الإنتاج المتواصل . وانكب على الكتابة والنشر سبع سنوات

لم تهدأ فيها همته ولم تفتر عزيمته حتى سدد جانباً كبيراً من ديونه التى بلغت نيفاً ومائة ألف من الجنيهات.

ثم طواه الردى وظلت قصصه الخالدة تدر أرباحاً طائلة سددت كل ما تبقى عليه من ديون.

ولد وولتر سكوت فى الخامس عشر من شهر أغسطس من عام ١٧٧١ فى مدينة أدنبرة بأسكتلندة. وكان أبوه من رجال القانون. وبعد مولده بعام ونصف العام أصيب بمرض عضال خلف فى إحدى قدميه أثراً لم يبرأ منه فظل أعرج طوال حياته. غير أن الرجل بما جبل عليه من عزيمة صارمة تحدى العرج وأخذ يتجول فى الحقول والغابات يملأ ناظريه بجمال الطبيعة.

وقضى سكوت طفولته فى مزرعة جده، وكان جميل المحيا، يحبه كل من يراه، ويحمله الخدم كلما صحا الجو إلى المراعى المجاورة ويتركونه وديعة عند أحد الرعاة. ويحدثنا سكوت فى قصيدة «مارميون» عن الأساطير التى كان يقصها عليه ذلك الراعى، والتى كانت تفيض بالشجاعة والنخوة والحماسة.

وكذلك كان جده يقص عليه أساطير البطولة والمغامرة.

وعندما التحق سكوت بالمدرسة فى أدنبرة لم تظهر عليه مخايل الذكاء ولم يتفوق على أقرانه فى الدراسة. بل كان شيطاناً صغيراً. وقد بز زملاءه فى الألعاب الرياضية بالرغم من عرجه. لم يشغف بالدرس، ولكنه أحب القراءة الحرة منذ حداثته. وكانت الالياذة ومسرحيات شيكسبير وأشعار روبرت بيرنز من أحب الكتب إلى نفسه. وعثر فى المكتبة على نسخة من كتاب برسى «آثار من الشعر الإنجليزى القديم» فالتهمها التهاماً، وحفظ الكثير من القصائد عن ظهر قلب، وأخذ يرددها لأقرانه فى المدرسة.

ثم التحق — بعد المدرسة — بجامعة أدنبرة، وفيها درس القانون كما فعل والده من قبل. وفى الجامعة التقى بالشاعر الأسكتلندى الرقيق روبرت بيرنز. وفى الجامعة أيضاً أغرم بالقراءة وأدمن فيها، كما أغرم بركوب الخيل والمشى الطويل برغم عرجه. فكان يقطع زهاء الثلاثين ميلا سيراً على قدميه دون أن يكل أو يتعب. وكان خلال تجواله يتحدث إلى الفلاحين ويدرس طبائعهم ويستمع إلى أناشيدهم الموروثة. وفى خلال تجواله أيضاً تعرف على البقاع التى ورد ذكرها فى الأغانى القديمة، وعلى معالم الطبيعة التى اختزن كثيراً منها فى نفسه ثم صور مناظرها تصويراً رائعاً فى قصصه فيما بعد.

واشتغل سكوت بعد تخرجه من الجامعة بالمحاماة. غير أنه لم يشغل بها كل وقته، فتوفر له الفراغ الذى أحسن استغلاله فى القيام برحلات يجوب فيها أرجاء أسكتلندة كلها وشمالى إنجلترا — إقليم البحيرات — الذى عرف بجماله الساحر.

وكان أول كتاب نشره سكوت «أناشيد الحدود» التى تغنى فيها بمفاتن الطبيعة فى المنطقة التى تقع بين إنجلترا وأسكتلندة.

وجمع الشاعر الشاب أثناء تجوله فى أسكتلندة كذلك كثيراً من الأناشيد التى نقلها عن أفواه الفلاحين وأضاف إليها أناشيد أخرى من تأليفه، ونشرها فى مجلد واحد، ولكنها لم تلق من الرواج ما لقيت محاولته التالية تحت عنوان «أغنية المنشد الأخير»، التى اتبعها بقصيدة «مارميون» التى أشرنا إليها آنفاً، ثم قصيدة «سيدة البحيرة».

وكانت أسكتلندة دائماً مهبط وحيه، بما حباها الله من طبيعة فاتنة صورها سكوت فى أشعاره التى ملك بها قلوب الناس فى عصره، واستحوذ على مشاعرهم وخلب ألبابهم.

لقد استمتع الناس من قبل بالأساطير الشعرية التى جمعها برسى ونشرها تحت عنوان «آثار من الشعر الإنجليزى القديم» كما استمتعوا بأساطير وليام وردزورث وصمويل كولردج الشعرية، وكذلك

بأناشيد روبرت بيرنز . بيد أن الأسطورة الشعرية كانت كما قال أحد النقاد كالأميرة النائمة ما برحت تحلم بالفارس الذى يهبها قلبه وفؤاده ، والذى يفك طلاسم سحرها فتصحو على يديه . . . وكان هذا الفارس هو وولتر سكوت أمير الأسطورة الشعرية فى الأدب الإنجليزى غير منازع .

وفى هذه الفترة من تاريخ حياة الرجل هبط عليه الثراء كوابل من المطر . فقد درت عليه كتبه ومؤلفاته أرباحاً طائلة ، فأسهم مع أحد ناشرى الكتب فى عمله ، وتضاعفت مكاسبه ، فعاش عيشة الأمير فى العصور الوسطى ، وأنفق عن بذخ . وكانت تلك أسعد أيام حياته .

واشتهر بين الناس ، وأخذ الإنجليز يحجون إلى بقاع أسكتلندة التى شاد بجمالها فى شعره ، وأصبحت بلاده ذات الجبال الوعر والطبيعة الشامخة قبلة الزائرين .

وأغراه ثراؤه الفاحش على شراء مزرعة شاسعة فى عام ١٨١٢ تقع على نهر تويد . وشيد لنفسه فيها قصراً منيفاً أخذ يضم إليه الأراضى ويوسع رقعته شيئاً فشيئاً ، وذلك لكى يحقق حلماً من أحلام الطفولة فى عصر كان لا يزال يؤمن بأرستقراطية أصحاب الأراضى . وأخذ يضيف إلى القصر جناحاً تلو جناح ، ويقيم الولائم الفاخرة ، ويستقبل مريديه الذين كانوا يفدون على قصره بدعوة وبغير دعوة ، حيث ينزلون أهلا ويحلون سهلا ضيوفاً عليه ، ويحظون بلقاء الشاعر الذى طبقت شهرته الآفاق .

وهنا بلغ المد فى حياة الرجل أعلاه : شهرة ، وثراء ، وعظمة ، وبذخ . . ثم بدأ الجزر ، فشرع يستدين ، وخبت شهرته قليلا كشاعر مفلق ، وأفلست شركة النشر التى كان يسهم فيها بماله .

غير أن الشاعر لم يستكن لهذه الظروف القاسية ، ففكر فى مخرج يقيله من عثرته ويقيمه من كبوته . وأراد أن يسترد شهرته ويسدد ديونه ، فعمد إلى مخطوط قديم كان قد بدأه فى عام ١٨٠٥ ولم يشأ أن يسوقه إلى نهايته . وأخذ يقلب صفحاته ، واعتزم أن يتممه وأن يخرجه اخراجاً جديداً ، فنشره فى شكل قصة تحت عنوان « ويفرلى » وكان ذلك فى عام ١٨١٤ .

وعندئذ أخذ سكوت يتحول من الشعر إلى الرواية ، على مضض منه ، لأنه كان يعتقد أن الرواية أدنى مكانة من الشعر ، كما كان يرى أنه لا يليق برجل القانون ، ولا يليق برجل من علية القوم أن يكون قصاصاً ، أو أن يقرن اسمه بالرواية . ولذا فقد نشر الكتاب غفلا من اسمه حتى لا يعرف مؤلفه . وكان يأمل أن يسترد سمعته كشاعر ويحسب أن تأليف القصص لا يعينه على تحقيق مأربه .

ولبث عازفاً عن إذاعة اسمه طوال السنوات العشر التالية التى شهدت اخراج أكثر من قصة ناجحة .

وتذوق الناس هذا اللون الجديد من القصة وتشوقوا إلى الكشف عن اسم كاتبها ، فاضطر تحت الحاف القراء أن يعلن اسمه على غلاف كل قصة ينشرها ، ولم يفعل ذلك إلا بعد عام ١٨٢٥ ، واستغرق سكوت بعد ذلك فى كتابة القصص ، ويصفه لكهارت مؤرخ حياته فى هذه الفترة من حياته فيقول :

« كنا ذات مساء إبان الشباب زمرة من الأصدقاء نسهر الليل فى المرح واللعب والشراب ، وإذا بنا نشهد من النافذة فى الغرفة المجاورة يداً تجرى على القرطاس لا تكف عن الكتابة ولا تقف ، يسطر صاحبها فى ضوء الشموع صفحة تلو الأخرى ويجمعها فى أكداس من المخطوطات ، والكاتب لا يكل ولا يمل . وبقى الرجل كذلك يوماً كاملا وبعض يوم لا يتحرك من مقعده ، ثم انصرفنا وانطلق كل منا إلى عمله ، والله وحده يعلم متى نهض الرجل من مكانه .

وكانت تلك اليد التى تحرر مئات الصفحات تدون قصة ويفرلى ، وصاحبها هو سير وولتر سكوت . والسر فى هذا العمل المتواصل المثمر نظام صارم فى

الحياة فرضه الكاتب على نفسه . وهو نظام يتفق وشخصيته ، لأنه لم يكن — كغيره — يؤمن بأن الحياة البوهيمية هى مزاج الفنان .

كان يستيقظ فى الخامسة صباحاً ، ويوقد بنفسه النار فى فصل الشتاء . ثم يغتسل ويرتدى ملابسه ويتأنق فيها ويعنى بهندامه . . ويستوى على مقعده للكتابة فى السادسة . والأوراق أمامه فى تنسيق تام ، ومراجعه حوله فى ترتيب ونظام ، حتى إذا ما التأم شمل الأسرة لتناول طعام الافطار بين التاسعة والعاشرة يكون قد أدى من العمل ما قد يكفى غيره يوماً كاملا . . ثم يعود إلى مكتبه ويلزمه حتى موعد الغداء . وبعدئذ يخرج إلى الحقول يجوبها وكلبه يصحبه ، يجمع من الحكايات وروايات العامة ما لا حصر له ، ويشهد على الطبيعة الشخصيات كما رسمتها الفطرة ، ويدرس حياة الناس التى ما زالت تحمل طابع الماضى الدامى الذى كانت تمزقه الخصومات وأسباب النزاع .

ومن مشتملات الكتيب ومن هذه الخبرات الخاصة ابتكر سكوت الرواية التاريخية ، وقل من الكتاب قبله من تعرض لها وعالجها مثلما فعل على أساس من الواقع الممزوج بالخيال الذى يقبل التصديق . . . » .

وقرأ الناس هذه القصص — ملوكاً ورعاة — ودرت عليه ربحاً وافراً ، وأقبلت عليه الدنيا مرة أخرى ، وعرضت عليه إمارة الشعر فرفضها بإباء وكبرياء . ولكنه قبل لقب « بارون » وأخذ يتوسع فى قصره ثانية ويتوسع فى أملاكه . ولكنه — برغم هذا — عجز عن تسديد ديونه ، وانكب على العمل لا يعرف للراحة طعما .

وأخذت النكبات تلاحقه ففقد زوجته وهو فى الخامسة والخمسين من عمره ، وبات رجلا أرملا ، عجوزاً ، مفلساً . . . ولكنه استمسك برباطة الجأش ، وأجهد نفسه بالعمل . ولم تحتمل صحته هذا الاجهاد ، فنصحه أصدقاؤه وأطباؤه بالانتجاع فى إحدى قرى إيطاليا . فرحل إليها ولكنه ظل دائب الحنين إلى وطنه أسكتلندة ، فقفل راجعاً إلى مسقط رأسه ، وعاد إلى قصره ابتسفورد الذى خيم عليه الهدوء والسكون .

وفى يوم دافىء من أيام الخريف فى عام ١٨٣٢ ورائحة العشب الأخضر تعطر الهواء وخرير نهر تويد يرن فى أذنيه أغمض عينيه وأسلم الروح إلى الأبد .

٢ — أهم أعماله

كانت ويفرلى كما ذكرنا هى أولى القصص التى كتبها سير وولتر سكوت .

ولم يكن عسيراً على هذا الرجل الذى مارس الأسطورة الشعرية فى شبابه أن يتجه نحو القصة ، يمزج فيها بين الحقيقة والخيال فيكسبها مرونة الحياة التى كادت أن تفقدها فى مطلع القرن التاسع عشر . وقد أثارت هذه القصة زوبعة فى عالم الأدب لأنها حدثت اتجاهاً جديداً فى الكتابة ، ثم اتبعها بغيرها من القصص مثل « قصة الماضى » و « القزم الأسود » التى نشرها فى عام ١٨١٦ ، وغيرهما — وكلها عن تاريخ أسكتلندة فى العصور الوسطى .

وقد عالج سكوت القصة بعد ما تخطى دور الشباب ، فاستطاع أن يخضع موضوع الحب إلى احداث التاريخ ويخلصه من الخيال الجامح الذى لا يستند إلى واقع . وكان واسع الاطلاع خبيراً بأخلاق الناس فاستمد مادته من قراءاته وخبرته . وكانت له فى الحياة فلسفة ناضجة يسترشد بها فيما يكتب ، فذاع صيته واشتهر اسمه . وكان قديراً على مزج العناصر الهزلية بالعناصر التراجيدية فى قصصه .

ولاقت قصص ويفرلى نجاحاً منقطع النظير ، ولما كشف مؤلفها عن شخصيته رحب به الأمراء فى بريطانيا وكرمه رجال السياسة فى فرنسا وإيطاليا .

وكان سكوت منذ حداثته يحفظ الحكايات ويحسن روايتها ، يدمن القراءة فى كتب التاريخ ، ويستمد منها

المواقف المثيرة . وقد استطاع أن ينفذ ببصيرته إلى الوقائع التى ترويها كتب التاريخ ، فيعيد الحياة إلى القديم الذى كاد أن يندثر ، ويحرك على مسرح روايته أشخاصاً عديدين من الرجال والنساء ، بعضهم ممن لهم صفة تاريخية وبعضهم الآخر من نسج خياله الخصيب — وكأن رواياته معرض للصور الشخصية : من فلاحين إلى رعاة ، إلى أبطال وملوك ، إلى أجلاف من ساكنى الجبال وسكان الأحياء الفقيرة الوطنية ، إلى القديسين والخونة — كل أولئك وغيرهم وصفهم وصفاً دقيقاً مستعيناً بخبرته المباشرة عن طبائع البشر . ذهنه خصب منتج ، لم تمنعه عن التدفق حتى علته التى كان يشكوها ، إذ كان مصابا بداء الدرن . ففى عام ١٨١٧ — بالرغم من استبداد الألم به — أخرج قصة « روب راى » وهى رواية تاريخية أخرى . وتتصف بطلات سكوت عادة بالجمال والفضيلة وإن كن كالدمى التى ليست بها حياة ، ولكن بطلة هذه القصة « دى فرنون » استثناء لهذه القاعدة ، فهى سيدة رقيقة ، حية ، عالية الروح .

وفى العام التالى أصدر « عروس لامرمور » أملاها وهو يشكو ألماً مبرحاً . والقصة تجربة عظمى فى المأساة المطولة . وهى قصة انهيار بيت من خير البيوتات . وبطلها « سيد رافنزوود » يعيش معتزلا مكتئباً فى مسكن مرتفع فوق قمة الجبل ، مثالا للبطل الرومانتيكى أفلست أسرته وفقد كل ما يملك إلا ما بقى عنده من عزة وكبرياء يحتمى بهما من نكبات الفقر والمسغبة . ويغرم بفتاة اسمها لوسى آشتن تنتمى إلى أسرة معادية كانت من عوامل القضاء على بيته الكريم . غير أن الفتاة — بتأثير أمها — تقترن بشاب آخر ، ولا تستطيع الاتصال بعشيقها الأول رافنزوود . ويستطيع أهلها أن يبعدوه عن مجال حياتها وأن يقنعوها بأنه هجرها وتخلى عنها . ولكن قلبها لم يتعلق قط بالزوج الذى أرادوه لها . وبعد حفل القران يظهر رافنزوود ويتحدى زوجها وشقيقها ، ويطلب إليهما مبارزته . وتشتد ثورة الفتاة فى هذا الموقف فلا تملك رشدها فتطعن زوجها فى صدره ، ثم تفقد صوابها ويطير عقلها ، وتنتهى حياتها غير أن عشيقها لا يرجع عن الانتقام لها ولنفسه ، فيتابع خصميه ، ولكنه لا يستطيع أن يلحق بهما فيلقى حتفه من شدة الاعياء . ويصف سكوت مشهد موته وصفاً أشبه ما يكون بالمآسى اليونانية ، بلغ ذروة الفن الرفيع .

ويتبع سكوت ذلك بقصص تاريخية أخرى منها « قلب مدلوثيان » ، و « ايفانهو » وموضوعها عصر رتشارد قلب الأسد ، وفيها تمجيد البطولة . ودور الحب ودور النساء فى القصة هو اظهار روح الفروسية والبطولة التى سادت فى العصور الوسطى .

وأدرك الكاتب أنه لا يستطيع أن يتعمق فهم روح العصور الوسطى إلا إذا درس تاريخ الكنيسة الرومانية فجمع فى مكتبته مصادر تاريخها ، وانكب على قراءتها وخرج منها بروايتى « الراهب » و « الدير » صور فيهما ما يحيط بالأديرة من غموض وتعسف وخرافة وظلام ساد عدة قرون ، كما صور قيمة الإنسان ومكانته فى الكون أكثر مما فعل أى كاتب آخر فى عهده . وآمن بأن الروابط الروحية والعقائد الدينية المشتركة تخلق بين الناس أخوة صادقة ونظاماً اجتماعياً مثالياً ، لا يمكن أن ينشأ عن مجرد النهوض الاقتصادى فى ميدان التجارة أو الصناعة .

وهذا الذى صوره سكوت فى قصصه كان مناراً لبعض من جاء بعده من رجال الفكر من أمثال «رسكن» و « وليام موريس » ، فرجعوا إلى الماضى لا يبحثون فيه عن صور رومانتيكية خلابة ، وإنما يلتمسون فيه طريقة للحياة أخرى تعبر حقاً عن روح الإنسان .

كان سكوت يعتقد أن النظام الإقطاعى يرمز للأخوة المسيحية الحقة ، فشاد به كما شاد بالروح التى سادت العصور الوسطى عامة ، وكان لذلك أثره على

كارليل ، وعلى دزرائيلى الذى كان من زعماء المحافظين الذين ينادون بالعودة إلى القديم .

وتصور قصة « الدير » عهد حكم الملكة اليزابث حينما كانت مذاهب الاصلاح تشق طريقها لأول مرة فى أسكتلندة فتلقى أشد المعارضة من رجال الدين . وفى هذه الرواية يستخدم المؤلف الجن والمعجزات والعفاريت ، وما إلى ذلك من قوى خفية ، يدفع بها حوادث القصة .

أما قصة « الراهب » فيمكن اعتبارها متممة لقصة « الدير » ، وهى أيضاً تصور هذه الفترة التاريخية ، وتحكى شيئاً عن حياة مارى ملكة أسكتلندة التى قضت فترة من الزمن سجينة فى إحدى القلاع ، ثم لاذت بالفرار ، والتف حولها مؤيدوها ، وقادتهم إلى موقعة لانجسيد ، واضطرت أخيراً إلى التقهقر إلى ما وراء الحدود .

وفى رواية « كنلورث » يصور الكاتب عظمة بريطانيا فى ذلك الحين ، ويرسم لنا صورة أخرى للملكة اليزابث وايرل ليستر الذى تزوج من فتاة حسناء ، لم تسعد بالحياة معه ، ثم ماتت فى ظروف غامضة . وعرض أمرها على كيمائى اسمه أسكولا ، خبير بفعل السموم ، وبالتنجيم ، وبطرق الدجل على اختلاف أنواعها ، لعله يكشف سر موتها . وفى هذا الجزء من القصة نتبين اهتمام الكاتب بدراسة المعميات والمبهمات .

ثم تلت ذلك قصة كنوز نيجل التى نشرها فى عام ١٨٢٢ وقد وقعت حوادث القصة فى لندن لعهد جيمس الأول . وهى تعطينا صورة رائعة عن بذخ البلاط وظلم العامة فى ذلك الحين ، وفرارهم من عسف القضاة إلى حرم الكنيسة .

ولم تفتر قط هذه الطاقة الجبارة التى تميز بها سكوت ، فتوالت مؤلفاته ، بعضها فى إثر بعض ، ومنها قصة « بفريل » التى يصور فيها شارل الثانى والحياة فى قصر بكنجهام . و « كونتن دير وارد » وهى تصوير سيكولوجى لشخصية لويس الحادى عشر ملك فرنسا وبلاطه . ثم أعقبها قصة « بئر سان رومان » التى يصور فيها الحياة المعاصرة فى أسكتلندة وما اتصفت به الطبقة الرفيعة من تراخ وخمول .

وبلغ سكوت قمة مجده ، غير أنه لم يكف عن الكتابة ، فأخرج قصة « رادجونتلت » فى عام ١٩٢٤ ، وموضوعها عزيز على نفسه ، لأنه يروى فيها مأساة أسرة ستيوارت .

ثم اظلمت الدنيا فى عينى الكاتب فجأة ، واضطربت علاقته بدار النشر التى كان يسهم فيها . وفى هذه الفترة الكئيبة من حياته أخرج قصة « المخطوبة » و « الطلسم » وهى قصة عن الحروب الصليبية على غرار « ايفانهو » . وهى موضوع هذا المقال .

وفى هذه الفترة العصيبة من حياة الكاتب أخرج أيضاً قصة « وود ستوك » يصور بها روح عصره ، والأزمة التى حاقت به . وفى هذه القصة يصور حياته بهذه العبارة :

« تمر بنا السنون كما تمر الرياح . ولا نرى متى تهب الزوبعة ، أو فى أى اتجاه تسير . وكأننا نشهد كر الأعوام دون أن تتغير نفوسنا . ولكن الزمان يخدع المرء فى قدرته ، كما تجرد الرياح الغابات من أوراق الأشجار » .

وتوالت على الرجل النكبات كما ذكرنا من قبل ، فقد ثروته كما فقد زوجته ، وألم المرض بأعز أحفاده لديه ، ولكنه واصل الكتابة برغم ذلك فأصدر « كانونجيت » و « قصص سيدى » .

وظل الرجل فى تدهور مستمر حتى مات فى عام ١٨٣٢ .

مصادر قصة « الطلسم »

كان سكوت كما ذكرت يغرم غراماً شديداً بالعصور الوسطى ، فصور الحياة فيها فى كثير من

قصصه . وكان يساوره دائماً احساس بأن التصوير لا يزال بعيداً عن الكمال . وأراد أن يسد هذا النقص بقصة جديدة فشرع يكتب « الطلسم » .

غير أنه أدرك – من ناحية أخرى – أن أمامه عقبات جمة تحول دون تحقيق ما يريد . فهو يجهل تلك المنطقة من العالم التى اشتعلت فيها الحروب الصليبية . وهى من أبرز ظواهر تلك الحقبة من التاريخ ، ومدى علمه بذلك الجزء من العالم ما ورد عنها فى قصص ألف ليلة وليلة التى قرأ ترجمتها بالإنجليزية .

وقد قام كثير من البريطانيين لعهده بزيارة تلك المنطقة وعرفوا من أمورها الشيء الكثير ، فخشى سكوت أن يعرض فى قصته صورة خيالية لا تطابق الواقع ، يدرك هؤلاء الرحالة مقدار بعدها عن الحقيقة فيكيلونها نقداً ، ولا تظفر القصة بشيء من التقدير .

وقد سبقه إلى وصف أهل الشرق كثير من الكتاب ، ولم يعد بوسعه أن يأتى بالشائق الطريف الذى ينافس به ما سبق نشره فى هذا المجال .

وأخيراً قرر أن ينزل إلى الميدان غير عابىء بالمنافسة أو راغب فى التفوق على ما سلف . واستقر به الرأى فى نهاية الأمر إلى معالجة تلك الفترة التى تتصل بالحروب الصليبية اتصالا وثيقاً ، والتى التقى فيها صلاح الدين برتشارد الأول ملك إنجلترا . وقد أظهر الملك المسيحى فى القصة كل قسوة وعنف ، فى حين أن صلاح الدين قد سلك مسلك الحكمة وبعد النظر . وتبارى الملكان أيهما يفضل الآخر فى صفات الفروسية والشجاعة والكرم . وكان بين الرجلين تباين شديد فى الطبع ، فاستمد المؤلف من ذلك المادة التى ينسج منها قصة خيالية تشوق القراء . وأقحم على الرواية شخصيات أخرى ثانوية .

ولم تكن شخصية رتشارد قلب الأسد جديدة فى قصص سكوت . غير أنه عرض فيما سبق من روايات لصفات الملك الخاصة أكثر مما عرض هنا فى الطلسم .

فقد كان الملك فى القصص السالفة فارساً متنكراً ، أما هنا فهو بصفته الصريحة ، صفة الملك الغازى . وكان سكوت يعتقد أن اسما كاسم الملك رتشارد عزيزاً على الإنجليز يدخل السرور إلى نفوسهم دائماً ولا يملون أبداً الاطلاع على ما يروى عن جوانب حياته المتنوعة .

وعالج سكوت فى القصة كل ما كان يعتقد الناس قديماً فى هذا الملك المحارب ، صدقاً كان أو خرافة ، وقد كان فى زمانه أكبر فخر لأوربا وفرسانها . وأعجب سجل لتاريخ رتشارد قصة خيالية قديمة ترجمت إلى الإنجليزية عن أصل نورماندى . وكانت أول أمرها أقرب ما تكون إلى رواية عمل من أعمال الفروسية ، ولكنها حشيت فيما بعد بأعجب الأساطير وأشدها إثارة للمشاعر ، فأصبحت مفزعة تبعث الرعب فى النفوس. وربما لم تتوارد على الأيام قصة خيالية منظومة كهذه يختلط فيها التاريخ الحق بالخرافة العجيبة .

ومن أحداث القصة الهامة ما دار منها حول طلسم عجيب اتخذه المؤلف عنواناً للرواية . وكانت عامة الشعب فى أسكتلندة تعتقد أن الفرس والعرب من بين جميع الأمم التى عاشت أكثرها شهرة بعقيدتهم التى لا تتزعزع فى التمائم والرقى وما إليها من التعاويذ التى لها فى علاج الأمراض تأثير بالغ ، كما أنها تجلب الخير أو الشر وفقاً للطريقة التى تستخدم بها . وقد استغل سكوت هذه الخرافة وحاك حولها كثيراً من حوادث هذه القصة الخيالية .

واستباح لنفسه الحرية فى تحوير الأسطورة التى كانت تدور حول « الطلسم » فى أسكتلندة ، كما استباح لنفسه كذلك كثيراً من حرية التصرف فى حقائق التاريخ . لأن القصة الخيالية عند سكوت لا ينبغى أن تلتزم وقائع التاريخ ، ومن حق كاتبها أن يبتدع من الأحداث ما يشاء طبقاً لما تقتضيه ضرورة الفن . القصص التاريخى فى رأى سكوت شيء وعلم التاريخ

شيء آخر : التاريخ يلتزم الحقيقة ، والقصة تمسخها كما تشاء لكي تدخل عنصر التشويق فيها .

ومن ثم فنحن لا نبعد عن الصواب إذا قلنا إن أكثر الحوادث المسوقة فى قصة « الطلسم » من خلق الخيال ، وأن الحقيقة — حيثما توجد — لا أثر لها إلا فى أشخاص الرواية .

وقد بنى المؤلف وصفه لشخصية رتشارد على الأساطير التى كانت تتداولها عنه الألسن فى بريطانيا ، والتى كانت تصفه بالتوحش والنهم ، بل وأكل لحوم البشر . وكانت شراسة الملك من الموضوعات التى تجوز فيها المبالغة كما تجوز فى شجاعته وإقدامه .

٤ — موجز القصة ومقتطفات منها

يبدأ المؤلف قصة « الطلسم » بوصف طبيعة أرض فلسطين ، تلك الأرض المقدسة التى يقاتل فيها الصليبيون لاسترداد بيت المقدس باعتباره حقاً من حقوق المسيحيين . والمسلمون فى جهاد لصد هؤلاء الغزاة الذين يريدون اغتصاب جزء من بلادهم لا يتجزأ ولا يمكن أن ينفصل عنها .

ومن بين المقاتلين الصليبيين فارس أسكتلندى يقدمه المؤلف لقراء الرواية منذ بدايتها ليمثل به خلق المحارب الصليبى وطريقة إعداده وتسليحه . يقول فى وصف هذا الرجل :

« . . . كان الفرنجى رجلا قوياً كالغوط الأقدمين فى هيئته ، شعره أحمر اللون أدكنه ، بدا لما رفع خوذته عن رأسه مجعداً كثيفاً غزيراً ، وقد لفحت وجهه حرارة الشمس فصيرته أشد سمرة من بعض رقبته التى لم تتعرض للفحة الشمس ، ومما نم عنه عيناه الزرقاوان المنفرجتان ولون شعره وشاربه الذى كان يظلل شفته العليا ، ولم تكن له لحية على مثال النورمان ، أنفه أغريقى جميل الصورة ،وثغره واسع الانفراج يكشف عن أسنان ناصعة البياض ، متينة جميلة الترتيب ، له رأس صغير يرتكز فوق رقبته فى أنفة وعظمة، لا يزيد عن الثلاثين من عمره ، ولكنك إذا حسبت للعناء والجهد حسابهما علمت أنه قد ينقص عن ذلك ثلاث سنوات أو أربع ، طويل القامة ، قوى البنية كأنه من هواة الرياضة البدنية ، يشبه أن يكون رجلا قد تقدمت به السن فلم يعد له سلطان على قوته ، بعد أن كانت تلك القوة ممزوجة بالخفة والنشاط . خلع القفاز الحديدى فإذا يداه طويلتان بيضاوان فى تناسق جميل ،وإذا عظام معصميه قوية كبيرة ، وذراعاه مفتولتا العضلات جميلتا التكوين ، يتميز فى حركاته وسكناته بمنف حربى واستهتار وصراحة فى التعبير . فى صوته رنة الأمر لا ذلة الخاضع ، وكأنه تعود أن يعبر عن عواطفه بصوت مرتفع وبأس شديد كلما اقتضت الضرورة أن يفصح عنها » .

وقد التقى هذا الفارس الأسكتلندى أثناء رحلته بأمير عربى :

« كان على نقيض الصليبى الغربى ، قامته فوق متوسط الرجال ، ولكنه كان أقصر من الفارس الأوربى بما لا يقل عن ثلاث بوصات ، إذ كان هذا الأخير يكاد أن يكون عملاقاً ، أطرافه دقيقة ، ويداه وذراعاه طويلة رقيقة ، تنسق فى حجمها مع جسمه ، وتتناسب مع طلعته ، ولكنها لا تدل لأول وهلة على القوة والليونة اللتين أظهرهما الأمير قبل ذلك بقليل . ولكنك إن أمعنت فى النظر ، رأيت ما بدا من أطرافه خفيفاً لا يكسوه لحم ، وكأنه لم يبق منه إلا عظام وعضل مفتول وعروق . رجل كأن الله قد أعده بهيئته هذه للعناء والاجهاد ، ليس البتة بالفارس البدين ، تتعادل قوته وحجمه مع وزنه وقد أنهكه الإعياء ، وكان هذا العربى بطبيعة الحال يشبه فى طلعته اجمالا قبائل الشرق التى هو من أبنائها . وما كان أبعده عن تلك المبالغات التى يرددها المغنون فى ذلك العهد فى وصف فرسان العرب ، وعن تلك الصورة الخيالية التى ما زال الفن

الشقيق (يقصد فن التصوير) يعرضها على اللوحات على أنها تمثل رأس العربى ، كان دقيق الملامح ، جميل التكوين ، رقيقاً ، تعلوه سمرة شديدة من أثر شمس الشرق المحرقة ، له لحية مرسلة سوداء متموجة الشعر ، غنى يتشذيب أطرافها ، وأنف مستو مستقيم ، وعينان حادتان ، سوداوان براقتان ، وأسنانه تنافس فى جمالها وبياضها عاج الصحراء . وقصارى الوصف ، كان العربى وهو يتمطى بجسمه فوق العشب ، إذا قيس بمنازله قوى البنية ، كمهندة البراق ذى الشكل الهلالى والحد الضيق الرقيق ، اللامع الدمشقى الباتر ، إذا قورن بالسيف الطويل الغوطى الثقيل ، الذى خلعه صاحبه وألقاه فوق الأديم . وكان الأمير فى زهرة العمر ، ولولا ضيق جبهته ، ورقة ملامحه وحدتها — أو لعلها كانت كذلك من حيث تقدير الأوربيين للجمال — لعد آية فى الجمال » .

ويوازن المؤلف بين الرجلين فى العادات والطبائع فيقول :

« كان المحارب الشرقى فى معاملته جاداً متعالياً شديد المراعاة للتقاليد ؛ يدل بسلوكه من بعض النواحى على ما فطر عليه أولئك القوم — الذين عرفوا بحدة المزاج وحرارته — من حرص يستمسكون به كى يقوا أنفسهم مما جبلوا عليه من حدة الطبع ، كما يدل على احساسه بكرامة كانت تضطر صاحبها إلى أن يرتبط فى مسلكه ببعض القيود .

هذا الشعور السامى بعلو النفس كان يحسه كذلك زميله الغربى ، ولكنه كان يختلف عنه فى مسلكه ، فبينما كان هذا الاحساس يملى على الفارس المسيحى الجرأة والاقدام ، بل وعدم الاكتراث ، وكأنه لفرط احساسه بعلو مكانته لا يأبه برأى غير رأيه ، كان يرسم للعربى نوعاً من المجاملة يجعله شديد المراعاة لآداب المعاشرة . نعم لقد كان كل منهما يجامل الآخر ، ولكن مجاملة المسيحى كانت تصدر عن روح التفكه الظريف بما يجب عليه نحو غيره ، بينما كان المسلم فى مجاملته يصدر عن احساس قوى بما كان غيره يرتقب منه .

« وتبلغ الرجلان بطعام خفيف ، ولكن طعام العربى كان جد زهيد ، فحفنة من تمر ، ولقمة من خبز الشعير كانت تكفى لأن تسد رمق جوعه ، إذ أنه نشأ على تقشف الصحراء ، وذلك رغم أن بساطة العيش العربى كثيراً ما غلب عليها ، منذ فتح سوريا ، البذخ الشديد الذى لا يقف عند حد . ثم اختتم وجبته بقطرات قليلة من ماء العين الجميلة التى أوى وصاحبه إليها . أما طعام المسيحى فكان شهياً رغم خشونته . وكان أهم ما يتألف منه لحم الخنزير المقدد ، الذى يحرمه المسلمون على أنفسهم . ثم أخرج قنينة من الجلد وصب منها شراباً أفضل من الماء الصافى . وهكذا أخذ يتناول طعامه بنفس مقبلة ، ويستقى وعليه إمارات الرضا . ولا كذلك العربى الذى كان يرى أن ليس من اللياقة أن يتظاهر المرء وهو يقضى حاجة من حاجات الجسم الدنيئة . ولا ريب أن كلا منهما كان فى دخيلة نفسه يهزأ من زميله كيف يعتنق ديناً باطلا . وزاد من هذا الشعور ذلك الفارق الكبير بين مسلكيهما وطعامهما . ولكن اثنتيهما قد أحسا كل بثقل ذراع صاحبه . فكان من أثر ذلك النضال العنيف الذى نشب بينهما أن يتبادلا التقدير ، ويخفيا كل اعتبار آخر . غير أن العربى — مع ذلك — لم يسعه إلا أن يشير بكلمة إلى ما لم يرقه من خلق المسيحى ومسلكه . وبعد أن تطلع مدة — دون أن ينبس ببنت شفة — إلى شهية الفارس القوية التى مدت من وجبته طويلا بعد أن فرغ هو من طعامه ، وجه إليه الخطاب وقال :

« أيها النصرانى الجسور ! هل يليق بالمرء يقاتل كالرجال أن يكون حين تناول الطعام كالكلاب أو الذئاب ؟ والله إنى لأظن أنه حتى اليهودى الكافر ليقشعر بدنه إذا رآك وأنت تأكل بشهية كأنك تتناول من ثمر أشجار الجنة » .

فالتفت المسيحى متعجباً من تلك التهمة التى ألقيت عليه دون أن يترقبها ، ثم قال :

« أيها العربى الجسور ! أعلم أنى إنما أستمتع بالحرية المسيحية ، وأن لى أن آتى ما لم يستطع اليهود الذين يرزحون تحت ملة موسى البالية .ولتعلم أيها العربى أننا نخضع لشريعة سامية ، حياك الله يا مريم ! انا لله شاكرون » .

واختتم حديثه بعبارة لاتينية قصيرة ، ثم احتسى جرعة كبيرة من القنينة الجلدية كأنه يتحدى ما يساور زميله من وسواس .

فقال العربى : « أفهذا أيضاً جزء من حريتك ؟ إنك إذ تطعم كالوحوش الضوارى ، وإذ تحتسى هذا الشراب السام ، الذى تأباه البهائم ، إنما تهبط بنفسك إلى حضيض الحيوان » .

فأجاب المسيحى بغير تردد : « اعلم أيها العربى الغافل أنك إنما تلعن ما أسبغ الله علينا من نعم : إن عصير العنب حلال لمن كان حكيما فى تناوله ، فهو ينعش القلب بعد عناء العمل ، ويرطب فؤاد المرء فى مرضه ، ويخفف عنه وطأة الحزن . من يستمتع بالخمر يحمد ربه على الكأس كما يحمده على قوت يومه . ومن يدمن فى الشراب فليس فى ادمانه بأقل منك غفلة فى تحريمك الخمر » .

.... فقال العربى : « والله أيها النصرانى إن كلماتك هذه لتبعث الغضب ، لولا أنك بجهالتك تستثير الرحمة . أفلا ترى . . . أن هذه الحرية التى تفخر بها لم تمتد إلى بيتك وإلى أنفس ما فى سعادة الإنسان ، فان شريعتكم تفرض على الرجل منكم ألا ينكح غير زوجة واحدة ، يرتبط بها فى صحتها وفى مرضها ، ولوداً كانت أو عاقراً ، وسواء أشاعت فى بيته الدعةوالسرور أو البغضاء والشحناء . تالله إن هذا أيها النصرانى إلا الرق عينه . انظر إلى دين المسلمين ! لقد جاء النبى للمؤمنين فى الأرض بملة أبينا إبراهيم وملة سليمان أحكم بنى الإنسان فأحل لنا فى الدنيا تعدد النساء الجميلات كيفما شئنا ، ووعدنا فى الآخرة بالحور العين » .

فأجاب المسيحى قائلا : «والذى أقدس فى السماء فوق كل شيء ، وبالتى أعبد فى الأرض أكثر من كل شيء ، ان أنت إلا كافر عميت بصيرته وضل هداه — انظر إلى جوهرة هذا الخاتم الذى تلبس فى إصبعك ، ألا تظن أن قيمتها تفوق كل تقدير ؟ » .

فأجاب العربى : « أجل وليس فى البصرة أو فى بغداد ما يشبهها . ولكن ما شأن هذه الجوهرة وما نحن فيه ؟ » .

فأجاب الفرنجى : « شأنها كبير . وستشهد بذلك أنت نفسك الآن . خذ فأسى هذه وهشم هذا الحجر الكريم إلى عشرين شظية ، ثم خبرنى ان كنت تظن أن لكل شظية وحدها ما كان للجوهرة بأسرها من قيمة ، أو أن الشظايا كلها مجتمعة لها عشر ما كان لها من ثمن ؟ » .

فقال العربى : « هذا سؤال صبيانى . أن جزئيات هذا الحجر لن تعادل عشر معشار الجوهر سليما » :

فأجاب الفارس المسيحى : « كذلك ، أيها العربى ، الحب الذى يحمله الفارس الحق لامرأة واحدة جميلة مخلصة ، هو كهذه اللؤلؤة سليمة . أما الحب الذى توزعه بين أزواجك اللائى تستعبدهن ، وامائك اللائى تنظر إليهن كأنصاف أزواج ، فما هو إلا بمثابة تلك الشظايا المتفرقة من هذا الجوهر الحر » .

فقال الأمير : « ورب الكعبة المقدسة أنك لمجنون ، لا تفرق بين الذهب والحديد . أمعن فى النظر تجد أن هذه الجوهرة الكبرى وسط تلك اللآلىء الزرية هى التى تكسب الخاتم جلاله وتعطيه قيمته ، ولولاها لما كان لها نصف جماله . هذا الجوهر الأوسط هو الرجل فى عزمه وكماله ، لا يستمد قيمته إلا من نفسه ، وأما هذه الحلقة من الجواهر الدنيا فهى النساء تستمد بريقها من بريقه ، يرسله عليهن كما يشاء ويهوى. انزع الحجر الأوسط من الخاتم يبق له قدره ويهبط ما دونه من اللآلىء فى قيمته .

وإنما هكذا يجب أن تفهم التشبيه الذى اتيت به . قال الشاعر : « إنما جمال المرأة ورقتها من فضل الرجل ، فلولا ضياء الشمس ما تألق فى البحار ماء » .

فأجاب الصليبي قائلا : « أيها العربى ، أنك إنما تتكلم كرجل لم يقع بصره يوماً على امرأة جديرة بحب أبناء الحروب . صدقنى أنك لو شهدت بنات أوربا — اللائى لهن علينا بعد الله حق الاخلاص والولاء — لما بقيت فى قلبك ذرة من حب لهاتيك الشهويات المسكينات اللائى تجعل منهن « حريمك » . إن جمال نسائنا يدبب حرابنا ويحد سيوفنا ، كلمتهن لنا شريعة ، وكما أن المصباح لا ينير إذا انطفأ لهيبه ، فكذلك الفارس إذا برز فى القتال ولم تكن له فتاة يوليها حبه » .

وهكذا اشتد الجدل بين الرجلين حتى التحما فى مبارزة أراد كل منهما أن يظهر فيها دربته على القتال . ثم انتهيا إلى مهادنة موقتة ، وتلازما فى سيرهما حتى بلغا عيناً من عيون الماء فى الصحراء اسمها « درة الصحراء » تظللها الأشجار ، فحطا عندها رحالهما .

وكان المسيحى فى طريقه إلى بيت المقدس يريد أن يحج إليه ، يحمل جوازاً للسفر وقع عليه صلاح الدين . وفى نيته أن يقضى المساء لدى ناسك اسمه « تيودوريك » يقيم فى دير منعزل وسط الصحراء ، وقد تطوع العربى المسلم أن يقوده ويحميه من مخاطر الطريق حتى يبلغ المكان الذى يقصده .

وهذا العربى أصله من كردستان ، قدم نفسه إلى صاحبه باسم شيركوه (أى أسد الجبل) من أسرة سلجوق — أسرة صلاح الدين الأيوبى .

وأما المسيحى فأصله أسكتلندى ، واسمه « كنث » وهو من المحاربين الصليبيين الذين يتبعون رتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا الذى تزعم إحدى الحملات الصليبية على فلسطين . وهو من جنود هذا الملك البريطانى يأتمر بأمره بالرغم مما كان بين إنجلترا وأسكتلندة من أسباب النزاع والخلاف فى ذلك الحين .

ويتحدث المسيحى عن الفروسية فى أوربا ويتشدق بصفاتها ، فى حين يحاول العربى أن ينزل الرعب فى قلب زميله فيوهمه بأنه من أصل شيطانى وأنه ينتمى إلى سلالة الجن . وإذ هما يتجاذبان أطراف الحديث يتراءى لهما فى الأفق شبح يقترب منهما رويداً رويداً . وكأن الشبح يريد أن ينقض على العربى ، فيعترض المسيحى سبيله ، ويحول دونه ودون الاعتداء على زميله المسلم . ثم يتبين بعد حين أن الشبح ليس إلا ذلك الناسك الذى كان يقصده سير كنث الفارس الأسكتلندى . وقد تنكر الناسك باسم هاماكو ، ودعا الرجلين إلى زيارته فى كهفه حيث يستطيعان أن يستريحا فى أمان تحت حمايته. ثم ساروا جميعاً صوب الكهف حتى بلغوه .

وعندئذ يتحول الناسك المندفع المتهور فى أول الأمر إلى قديس عابد متواضع ، جواد يكرم وفادة الضيف . ولما يتحقق سير كنث من شخصه يسلمه رسالة يحملها إليه من « جماعة القواد المسيحيين المشتركين فى الحرب الصليبية ، يطلبون فيها عقد الصلح مع صلاح الدين بعد انقضاء فترة الهدنة المبرمة بين الطرفين . ذلك لأن هاماكو رجل يجله المسيحيون جميعاً ، حتى البابوات أنفسهم فى روما ، كما يجله المسلمون ، ويحميه صلاح الدين من أى اعتداء .

وقضى الفارسان ليلتهما فى الكهف متعاونين متحابين فى هذا الموقف الرهيب . وهما صورة رائعة يرسمها سير ولتر سكوت للصداقة التى يمكن أن تنشأ بين المسيحيين والمسلمين أفراداً برغم ما بينهم من حرب صليبية وهم جماعات .

وفى جوف الليل تسلل الناسك إلى مخدع الفارس الأسكتلندى وأشار إليه أن يتبعه ، ودلفا معاً إلى ركن من أركان الكهف وأديا معاً صلاة المساء . وبعدئذ أطلع الناسك صاحبه على السوط الذى كان يقسو على نفسه به ضرباً بقصد التوبة مما ارتكب فى ماضى حياته من آثام .

ثم ستر الناسك وجهه بقناع من الحديد ، وسار وصاحبه نحو غرفة شقت فى جيب من جيوب الكهف تصلح للنسك والعبادة ، علقت بها مصابيح من فضة ، تشرت فى جوها رائحة العطور والبخور ، يتوسطها ضريح تسير حوله جماعة من النسوة يشبهن الراهبات يرتلن نشيد « المجد لله فى الأعالى » .

وبينما يسير موكب النسوة سقطت من إحداهن على قدم السير كنث زهرة بيضاء .

« ولم يشك الفارس فى أنه إنما كان فى دير من الأديرة التى كانت الفتيات المسيحيات النبيلات فى الزمن الماضى يقفن حياتهن فيها صراحة لخدمة الكنيسة . وقد انقطع التحاقهن بهذه الأديرة مذ أعاد المسلمون فتح فلسطين . غير أن الكثيرات منهن اشترين الاغضاء عنهن بالهدايا ، أو لحقتهن رأفة الظافرين ، أو احتقارهم لشأنهن ، فبقين دون أذى ، وواصلن فى الخفاء مراعاة الطقوس الدينية التى كانت لزاماً عليهن بما أخذن على أنفسهن من عهود » .

وحدق الفارس الأسكتلندى فى الفتاة التى أسقطت عند قدمه الزهرة ، ولم يكن وجهها غريباً عنه ، وتذكر أنه التقى بها ذات ليلة فى إحدى حفلات البلاط الملكى فى إنجلترا قبل قيام هذه الحملة الصليبية التى اشترك فيها . وقد نزلت من قلبه منذ ذلك الحفل منزلا عظيما ، كما ظفر منها بالاعجاب الشديد . بيد أن البون الشاسع بين مكانتها الملكية ومكانته فى المجتمع كانت تحول دون أن يبوح كل منهما للآخر بما يجيش فى نفسه .

وعندما وقعت عيناه عليها فى الدير « أخذ قلبه يرفرف ، كطير حبيس فى قفص يريد أن ينطلق ، وأحس أن هذه الفتاة أقرب إلى نفسه من كل من عداها من الحاضرات ، بل ومن كل بنات الجنس اللطيف قاطبة . وتحتم قواعد الفروسية على الفارس أن يوثق الروابط بين عاطفة الحب الشعرية ، وشعور الانخلاص لله ، وهو شعور لا يقل خيالا وشعراً عن عاطفة الحب ذاتها . وهما احساسان يقوى أحدهما الآخر ولا يتعارضان » .

وكلما مر النسوة به أثناء سيرهن حول الضريح أسقطت الفتاة زهرة من يدها عند قدمه ، حتى لم يعد لديه شك فى أنها تلك الأميرة التى كانت تحتل قلبه قبل خروجه إلى هذه الحرب الدينية على أرض فلسطين .

« . . . ومن العجيب فى عهود الفروسية أن الفارس وهو فى فرط نشوته ، لم يكن يتطرق إلى ذهنه أن يتعقب أو يتأثر الفتاة التى يتعلق بها قلبه . . لأنها معبودة يكفى منها عطفها على من يعبدها . . ان رأفت بالعابد بعثت فيه الحياة ، وان قست عليه تملكه اليأس والقنوط كل شىء وفق ما تريد ، ليس إلى الالحاف عليها أو الاعتراض من سبيل ، وليس على الفارس إلا أن يتوجه إليها مخلصاً فى خدمها بقلبه وبسيف الفروسية الذى يحمل . وليس له فى الحياة إلا مرمى وحيد ، هو أن يأتمر لها بما تأمر ، وأن يذيع فى العالمين صيتها بكل ما يستطيع أن يقوم به من عمل جليل » :

ثم ينتقل بنا المؤلف بعد هذا إلى معسكر الملك رتشارد الذى يقع بين عكاو عسقلان ، ويعطينا صورة رائعة عن صلف هذا الملك وكبريائه مما أدى إلى حقد زملائه المسيحيين عليه ، فانسحب فيليب ملك فرنسا وغيره من كبار الصليبيين من صفوف القيادة وانتهى الأمر إلى الضعف — الذى يكاد أن يبلغ حد الانحلال فى جيش رتشارد . وتمرد الجيش على قائده الأعلى ، ونادى بالعودة إلى أوربا تخلصاً من زعامة هذا الملك الجبار ، ومن جو حار قاتل لا يلائم هؤلاء المحاربين القادمين من الشمال . ولما عرف المسيحيون قوة جيش عدوهم صلاح الدين وكثرة عدده اشتد ضعف الروح المعنوية بينهم وفترت كل حماسة فى قلوبهم ، وخاضوا حرباً يائسة مع المسلمين الأشداء تهوى بهم على عجل نحو الهزيمة المنكرة .

ووسط هذا الجيش المتداعى كان رتشارد يرقد فى معسكره عليلا لا يكاد يقوى على الحركة . وزاد من وطأة المرض عليه ما نمى إليه من تذمر الجيش ، وانفض من حوله أعوانه ما خلا فارساً واحداً هو لورد توماس دى فو ، كان له على الملك سلطان شديد وكلمة مسموعة :

ويذكر رتشارد بحسرة شديدة فتور حماسة المسيحيين فيقول :

« إنها ليست إلا نوبة الحمى قد حلت بنا ، ولكن أفتظنها كذلك يا صاح مع الأمراء المسيحيين قاطبة ؟ . . . إنما هى مع هؤلاء فالج بارد وفتور مميت — إنما هى مرض يمنعهم عن الكلام والحركة — هى قرحة تأكل كل ما فى قلوبهم من نبل وفروسية وفضيلة ، وتجعل منهم خونة لكل عهد نبيل يقسم الفوارس على حفظه ، وتجعلهم لا يأبهون لذكراهم ولا يذكرون الله » .

واجتمع القادة الصليبيون يفكرون فى اختيار من يحل محل رتشارد ، واختار بعضهم فيليب ملك فرنسا ، واقترح بعضهم ليوبولد أرشيدوق النمسا ، أو آمورى كبير فرسان المعبد ، أو الماركيز منتسرا الأمير الإيطالى .

ويتندر رتشارد وهو فى فراش المرض بهؤلاء جميعاً ، ويغض من شأنهم ويحط من قدرهم . وعندئذ تسمع داخل سرادقه أصوات تأتيه من خارج ، فيسارع دى فو بالخروج لعله يتعرف إلى مبعثها ومأتاها . فرأى جماعة من الأعراب يثيرون ضجيجاً عالياً ومعهم سير كنث الأسكتلندى . فتجهم دى فو لرؤيته لأنه كان يمقت الأسكتلنديين عامة ، ثم سأله ما الخبر ؟

فأجاب الأسكتلندى أنه جاء بطبيب (أو حكيم) من لدن صلاح الدين ، يفحص الملك ، وهو يضع فيه كل ثقة لما لمس فيه من حذق فى طبه ومهارة فى فنه . وقد وصل الطبيب مع حاشية تابعة له هى التى يصدر عنها هـذا الصياح الذى سمعه الملك . وقـد أرسل صلاح الدين مع طبيبه هدية من الفاكهة والطعام النادر والشراب السائغ ، مصحوبة برسالة منه يتمنى للملك فيها عاجل الشفاء ، ويعده فيها بالزيارة .

وأكد كنث براعة الطبيب لأنه قد اختبره علاج خادمه ، وكان علاجه ناجعاً . واقتنع دى فو بحذق الطبيب كما اطلع على أوراق اعتماده من صلاح الدين ، فقدمه إلى الملك ، الذى فض الرسالة التى يحملها وقرأ فيها ما يلى :

« سلام الله ورسوله محمد . تحية من صلاح الدين ملك الملوك ، سلطان مصر وسوريا ، نور الدنيا وملاذها إلى رتشارد العظيم ملك إنجلترا : أما بعد ، فقد نمى إلينا ، يا أخى فى الملك ، أن المرض قد مد إليكم يداً ثقيلة لا تحتمل ، وأن ليس لديكم من الأطباء غير النصارى واليهود ، الذين لا يعملون ببركة الله ونبينا الكريم . ولذا فانا مرسلون إليكم بطبيبنا الخاص يقوم برعايتك ، ويسهر على راحتك ، وهو « أدنبك » الحكيم ، الذى ان رآه اسرائيل نشر جناحيه ورحل عن غرفة المريض ، والذى يعلم مزايا الأعشاب والأحجار ، ومسير الشمس والقمر والنجوم ، وفى وسعه أن ينقذ الإنسان من كل ما لم يكتب على الجبين . وإنا لهذا فاعلون ، متوسلين إليك من أعماق القلوب ، أن تكرمه وتفيد من حذقه . ولم أفعل ذلك تقديراً لشجاعتك فحسب . . . وإنما فعلته لكى أقضى على الخصومة القائمة بيننا الآن ، إما باتفاق شريف ، أو علناً بحد السيف فى ساحة القتال . ذلك لأنى أرى أنه لا يليق بمكانتك وشجاعتك أن تموت ميتة العبد أنهكه سيده بالعمل . . » .

ثم مثل كنث أمام رتشارد فسأله الملك عن سبب زيارته لدير الناسك ، وعن الرسالة التى كان يحملها فاعترف بأنها موجهة من « جماعة القواد الصليبيين » إلى الناسك لكى يتوسط لدى صلاح الدين فى عقد صلح دائم وسحب جيوش المسيحيين جميعاً من أرض فلسطين ،

أما شروط الصلح فهى مضمون الرسالة التى كانت مختومة وليس له بها علم .

وعندئذ دخل على الملك الرئيس الأعلى لفرسان المعبد والمركيز منتسرا الإيطالى موفدين من قبل « جماعة القواد المسيحيين » ، وأفضيا إلى الملك ألا يتعرض لفحص الطبيب العربى إلى بعد ما تقر « الجماعة » هذا التصرف وبعد ما تعين لمرافقته بعض أطباء الفرنجة .

ورفض الملك أن يستجيب لهذا الطلب ، وسمح للطبيب أن يناوله شيئاً من الدواء الذى كان يخفيه فى صدره .

ولما كانت الغيرة تأكل صدر الأمير الإيطالى من ملك الإنجليز فقد أراد أن يوقع بينه وبين ملك فرنسا وأمير النمسا ، ويمسى هو بعدئذ ملكاً على بيت المقدس . وأيده فى هذه المؤامرة رئيس فرسان المعبد ، حتى تسود الفرقة بين الصليبيين ، ويبقى هو فى بيت المقدس سيداً على نفسه يتمتع باستقلاله الذاتى بعيداً عن ملوك أوربا .

وأفلحت المؤامرة وهم دوق النمسا بانتزاع العلم البريطانى من فوق الربوة التى رفع عليها ، لكى يحل علم النمسا محله . وأحس الملك بهذه الحركة فانطلق من مرقده كالوحش متجهاً نحو علم بلاده ، وأعاده إلى مكانته ، وداس بقدمه علم النمسا ، وتحدى بالمبارزة كل من يعترض سبيله . ووكل إلى الفارس الأسكتلندى حراسة العلم البريطانى .

وانفرجت أسارير الفارس لهذه الثقة التى وضعها فيه الملك ، وظن أنه يستطيع بذلك أن يتقرب إلى الأميرة الإنجليزية التى يهواها « أديث » وأن يمد إليها يده فتقبلها . وإذ هو فى هذه الأحلام جاءه رسول من الملكة تنبئه بأنها هيأت له فى سرادقها مقابلة معشوقته الأميرة . ولم يكن قصد الملكة فى الواقع من ذلك إلا أن تغرى الفارس بالتخلى عن واجبه فى حراسة العلم ، فيتعرض لغضب رتشارد ، وتنتقم لنفسها بذلك من الأميرة التى كانت تغار منها . ويستحيل بعدئذ على العاشقين أن يجتمعا .

وخدع السير كنث وقصر فى مهمته فاستطاع أحد خصوم الملك أن ينزع الراية البريطانية ، وعبثاً ما حاول كلب الفارس الأمين أن يدفع عنها ، وكاد أن يموت مما أصابه من جراح أثناء العراك .

ووقف الفارس إلى جوار كلبه مهموماً كاسف البال ، وإذا بالطبيب يباغته ويتطوع لعلاج كلبه الأمين . ويبث الفارس الطبيب آلام ضميره من اهمال واجب الحراسة ، فيشير عليه الطبيب باللجوء إلى صلاح الدين ملاذ كل عاجز وضعيف .

ثم أفضى الطبيب للفارس أن صلاح الدين لا يقبل الصلح مع الصليبيين إلا إن تم ذلك مع رتشارد وحده وبشرط أن يرضى الملك بزواج صلاح الدين من الأميرة اديث .

ولما استمع إلى ذلك الفارس الأسكتلندى رفض أن يلجأ إلى صلاح الدين الذى قد يظفر بحبيبته إذا قبل رتشارد شروط السلطان . واعتزم أن يبلغ الملك بنفسه حقيقة ما حدث للعلم ، وليكن ما يكون .

وغضب الملك غضباً شديداً لما علم باقتراح صلاح الدين ، وأمر بابعاد الفارس الأسكتلندى وتنفيذ حكم الاعدام فيه فوراً عقاباً له على اهمال واجبه .

ولم يقبل الملك شفاعة فى الفارس الأسكتلندى ، حتى توسط له الطبيب العربى ، واستطاع أن يقنعه بأن الطلسم الذى يستخدمه فى معالجته لا يفعل فعله إلا ان عفا عن الفارس . وعندئذ يرى الملك نفسه مضطراً إلى العفو ؛ فيرحل الفارس إلى معسكر صلاح الدين لاجئاً عنده .

ولما أبلغ الملك قرار الأمراء الصليبيين الذى يقضى بضرورة الصلح مع صلاح الدين وقبول شروطه على أساس المصاهرة التى عرضها البطل العربى ، وإلا عاد

الأمراء إلى بلادهم وخلوا ملك بريطانيا وحده فى ساحة القتال — لما أبلغ بهذا قال :

« وهل أبدى السلطان ميلا إلى اعتناق المسيحية ؟ ان صح هذا فليس على وجه الأرض ملك أمنحه يد قريبتى ، بل أختى ، قبل أن أقدمها لصاحبى صلاح الدين النبيل — أى والله ، حتى إن جاء الأول يقدم التاج والصولجان تحت قدمها ، وجاء صلاح الدين خالى الوفاض لا يملك سوى سيفه الكريم وقلبه العظيم ! » .

وقرر الملك أن يجتمع بالأمراء الصليبيين أملا فى أن يحثهم على المضى فى الجهاد . وخطب فيهم ، ونال تأييدهم جميعاً ما عدا المركيز الإيطالى ورئيس فرسان المعبد ، فقال الملك :

« . . . ما كنت أحسب أن اساءتى — وربما كانت عارضة وبغير اصرار سابق — تجد لها فى قلوب أحلافى مرتعاً خصيباً فى هذه القضية المقدسة التى نسعى لها ، وأنهم من أجلى يسقطون المحراث من أيديهم ، بعد ما خط الأخدود حتى قرب نهايته ، وأنهم من أجلى يحيدون عن الطريق المستقيم الذى يؤدى إلى بيت المقدس ، والذى بسلاحهم شقوة . حقاً لقد كنت أخدع نفسى حينما كنت أظن أن خدماتى القليلة ترجح أخطائى الطائشة . وإذا ذكرتم أنى أخف إلى الطليعة دائماً عند الهجوم ، فلا تنسوا أنى أكون دائماً فى ذيل المتقهقرين . وأنى ان رفعت رايتى فوق بلد مقهور ، فان فى ذلك لكل الجزاء الذى أرجو ، تاركاً لغيرى اقتسام المغانم . كنت أستطيع أن أطلق اسمى على المدائن التى نغزوها ، ولكنى أسلمت لغيرى البلاد . وان كنت عنيداً صلب الإرادة ، أفرض الرأى بجرأة واقدام ، فما أحسب أنى ضننت بدمى ودم قومى فى انفاذ ذلك الرأى بمثل تلك الجرأة وذلك الاقدام . وان كنت فى عجلة المسير أو فى ساحة القتال زعمت لنفسى على جنود الآخرين سلطاناً ، فقد كنت أبداً أنظر إلى هؤلاء الجنود كأنهم جندى ، أشترى لهم بمالى المؤونة والدواء ان قصر أربابهم عن احرازها . . . ووالله لأقطعن بيمينى يسارى لو كان لديكم دليل ينهض شاهداً ضدا خلاصى . . . ولو ظفرنا بصهيون فلن أكتب على أبوابه اسم رتشارد ، بل أولئك الأمراء الذين عاونوه على الانتصار » .

غير أن الأمير الإيطالى وصاحبه أصرا برغم هذا على التخلص من رتشارد بالدسيسة ، واتفقا مع أحد الأعراب على أن يأتى لهم برأسه .

ويبلغ الملك صلاح الدين قرار جماعة القواد الصليبيين باستئناف القتال بعد ما تنقضى فترة الهدنة ، ويرد السلطان باستعداده لدخول المعركة ، ويحمل هذه الرسالة إلى رتشارد رسول يتنكر فى زى رجل نوبى .

ويصل إلى سرادق الملك ذلك الاعرابى الخائن الذى حرضه الأمير الإيطالى على اغتيال الملك ، فيتعرض له النوبى ، ويهشم الملك رأسه ويقضى على حياته .

ويعد النوبى الملك أن يرشده إلى الرجل الذى اعتدى على العلم البريطانى وانتزعه من مكانته .

وكان السير كنث كما قدمنا قد صحب الطبيب إلى معسكر صلاح الدين لاجئاً عنده بعد ما عفا عنه الملك تقصيره فى واجبه وطرده من معسكره . وبينما يسير الرجلان صوب معسكر السلطان يعترف الطبيب العربى للسير كنث الفارس الأسكتلندى بأنه هو ذلك العربى عدوه القديم الذى لاقاه من قبل متخفياً فى زى بطل عزبى وهما فى الطريق إلى العين التى تعرف باسم « درة الصحراء » . ويبوح له بأنه أعجب بتلك الفتاة « اديث » التى كان يجدها أحياناً فى سرادق الملك ، وأنه يريدها زوجاً للسلطان . ووعده إن حقق له هذا أن يعاونه فى الكشف عن سارق العلم فيعيده بذلك إلى حظيرة المَلك ويرد له رضاه .

وعندئذ تنكر الفارس الأسكتلندى فى زى رجل نوبى ، وحمل معه رسالة صلاح الدين إلى الأميرة الإنجليزية ، وعرض على الملك أن يصفّ له الأمراء المسيحيين جميعاً وهو كفيل بأن يتبين فيهم السارق

الذى خطف العلم . وفعل الملك ، واستعان الفارس الأسكتلندى — كما نصحه الطبيب العربى — بالكلب الأمين .ونشب الكلب أظفاره فى الأمير الإيطالى وأنزله من جواده ، فعرف الملك أنه هو الذى اعتدى على رايته .

وعندئذ اقترح ملك فرنسا أن يجتمع الأمراء المسيحيون ليحكموا فى الأمر . غير أن الملك فى سورة الغضب تحدى الماركيز الإيطالى للمبارزة ، وحدد لهما فيليب ملك فرنسا يوماً معيناً للنزال على أرض محايدة ، اقترح أن تكون أرض صلاح الدين .

وهنـــا طلب الملك إلى النوبى أن يتوجـــه إلى صلاح الدين ويرجوه أن يختار له بطلا عربياً ينازل الأمير الإيطالى نيابة عنه . وسمح له قبل مغادرته المعسكر البريطانى أن يبلغ اديث رسالة السلطان إليها .

ولما مثل النوبى بين يدى الأميرة أدركت أن هذا النوبى هو بعينه سير كنث جاءها متخفياً ، وقد أبدت له استياءها من مضمون الرسالة وصاحبها وحاملها ، وأعرضت عنها فى كبرياء وشمم . كما أبدت شديد امتعاضها للملك ، وعتبت عليه اضطهاده لسير كنث ، فوعدها أن يبلغ السلطان رفضها ، وحمل النوبى هذه الرسالة .

وحل يوم النزال بين رتشارد والأمير الإيطالى . واستعد صلاح الدين لهذا اليوم استعداداً عظيماً . واستقبل رتشارد بالترحاب الشديد . ولما أبدى الملك رغبته فى لقاء الطبيب كشف صلاح الدين عن شخصه ، واعترف أنه هو الطبيب تنكر لكى يقوم بعلاج الملك رتشارد .

وعندئذ أدرك الملك أن صلاح الدين هو الذى عمل على انقاذ سير كنث من الموت الذى كان مهدداً به لاهماله واجب حراسة العلم البريطانى التى وكلت إليه . وعرف أن صلاح الدين سيمثل البطل العربى الذى يبارز أمير إيطاليا نيابة عن الملك رتشارد .

وفى هذا الظرف تنازل صلاح الدين عن رغبته فى الاقتران بالأمـــيرة البريطانية ، وآثر الفـــارس الأسكتلندى على نفسه .

وينهزم الأمير الإيطالى فى المبارزة هزيمة منكرة ويعترف باعتدائه على العلم البريطانى ، ويتهم معه فى الجريمة رئيس فرسان المعبد .

وهنا يكشف الملك للأميرة اديث عن حقيقة سير كنث ، فهو أمير أسكتلندا ووريث عرشها . ويبدى موافقته على قرانهما ، ويرمى من وراء ذلك إلى تخفيف حدة التوتر بين أسكتلندة وإنجلترا بهذه المصاهرة الملكية .

وبينما كان الأمير الإيطالى فى فراشه يعانى ألم الجراح التى ألمت به على أثر المبارزة بينه وبين البطل العربى ، تسلل إليه رئيس فرسان المعبد ، وطعنه فى أحد جنبيه طعنة شديدة قضت على حياته .

ويفتضح للحافلين سر الجريمة ، فينتقم صلاح الدين من رئيس الفرسان توا ً ويفصل بسيفه الباتر رأسه عن جسده .

وفى نهاية هذا اليوم يقترح رتشارد أن يتبارز مع صلاح الدين لكى تكون السيادة فى بيت المقدس للفائز فى النزال . ويرفض صلاح الدين هذا العرض لأن بيت المقدس ملك للمسلمين لا ينازع .

ثم يعاود الملك العرض على صلاح الدين بالمبارزة من أجل الشرف والكرامة . ويرفض صلاح الدين مرة أخرى لأن حياته — فى اعتقاده — ملك رعيته وليست ملكاً له .

ويفترق البطلان صديقين على أن يكون بيت المقدس للمسلمين .

ويعود صلاح الدين إلى معسكره ، ويبعث بالطلسم الشهير هدية منه إلى سير كنث بمناسبة عقد قرانه على اديث .

ويحفظ البيت الملكي الأسكتلندي بالطلسم ، يشفي به كثيراً من الأمراض المستعصية .

ويعود الأمراء المسيحيون جميعاً — وعلى رأسهم رتشارد — إلى مواطنهم فى أوربا ، ويبقى بيت المقدس ملكاً للمسلمين .

وهكذا تنتهى قصة الطلسم التى كتبها سير وولتر سكوت لكى يصور بها جانباً من الحروب الصليبية التى نشبت بين المسيحيين والمسلمين فى العصور الوسطى .

٥ — تقدير عام للقصة وكاتبها

تدور حوادث القصة كلها كما أوجزنا حول موقف من المواقف المشهورة فى الحروب الصليبية بين رتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وصلاح الدين الأيوبى . وليست أهمية القصة فى تسلسل الأحداث فيها ، وإنما ترجع أهميتها إلى أنها تبسط كثيراً من مميزات العصور الوسطى ، وتبين لنا فى تفصيل واسهاب رأى المسلمين فى المسيحيين ، ورأى المسيحيين فى المسلمين ، لذلك العهد . كما تصور الروح العسكرية التى سادت تلك الحقبة من التاريخ ، والتعصب للدين ، والاستماتة فى الدفاع عنه ، والاعتقاد فى السحر والخرافة ، وطرفاً من حياة الرهبان المسيحيين وقسوتهم على أنفسهم فى أسلوب توبتهم إلى الله ، وتكفيرهم عما اقترفوا من ذنوب .

وكذلك رسم الكاتب فى القصة صورة رائعة للفروسية فى ذلك العهد ، كما مجد المسلمين وبطولة العرب فى كثير من المواقف .

وتبين القصة كذلك كيف كانت المبارزة بين الأمراء وسيلة لفض ما قد ينشب بينهم من خلاف .

وتروى القصة لونين متباينين من الحب : لوناً شهوانياً مجرداً يعزوه سكوت إلى أهل الشرق عامة ، وآخر أفلاطونياً عذرياً ، ويعزوه إلى الغربيين فى ذلك الزمان ، وهو حب لا يمس العاشق فيه معشوقته ، ويكاد يسجد لها من دون الله .

ولعل أدق ما ترويه لنا الرواية تحليلا مفصلا لشخصى رتشارد وصلاح الدين . يعرض لنا سكوت رتشارد رجلا قوى البنية غليظ الطبع ، شديد النفوذ على أتباع الصليب جميعاً ، سريع الغضب ، سليم الطوية ، صريح العبارة ، لا يعرف إلى المداراة أو التواء القصد سبيلا . أما صلاح الدين فيمثل المكر والدهاء ، والصبر وطول الأناة . يعرضه لنا المؤلف فى مستهل القصة متخفياً فى شخص مجاهد من المجاهدين المسلمين ، مقداماً شجاعاً ، لا يتهيب ولا يخاف . ثم يخلع عنه زى المحارب ، ويأتى لنا به ثانية متنكراً فى لباس الطبيب أو (الحكيم) كما يحب سكوت أن يسميه عامداً ، لأنه يريد أن يومىء إلى أن العرب كانوا يخلطون بين (حكمة) الطب و (حكمة) الفلسفة ورواية الحكم والأمثال . وفى مختتم القصة ينزع صلاح الدين كل معالم التنكر ، ويبرز لنا فى شخصه الحر الكريم ، جواداً ، سياسياً محنكاً ، وحكماً عدلا بين الصليبيين .

كانت حكاية « الطلسم » قصة تافهة تتداولها الألسن فى أسكتلندا ، فالتقطها سكوت وبيد صناع أكسب الحكاية أهمية قصوى ، وأفرغها فى قصة من أثمن ما خلفت لنا الأجيال الماضية من تراث فى هذا المجال الأدبى . اخترق بخياله سجف الماضى وقدمه إلى معاصريه مادة شائقة للقراءة فى صورة جديدة كل الجدة من القصة التاريخية . ويحيا الماضى على صفحات قصصه مرة أخرى فى رواية قد تبتعد عن الحقيقة كثيراً ولكنها تقبل التصديق .

إن سكوت لم يعبث بالتاريخ إلا بمقدار ما عبث به شيكسبير الذى كان يحور التتابع التاريخى لكى يحدث فى القارئ أو المستمع تأثيراً درامياً . أما الأشخاص والدوافع فيلتزم فيها الواقع والحقيقة .

وكان سكوت أحياناً يبتدع الشخصية الرئيسية فى الرواية ابتداعاً ، ويخلقها من عدم ، ويجعل أشخاص التاريخ أنفسهم الذين كان لهم فى الواقع ماض معروف ، فى موضع ثانوى فى القصة ، وذلك لكى يعطى نفسه مزيداً من الحرية فى عرض بطل الرواية — كما فعل فى ويفرلى وايفانهو — كما كان فى بعض الأحيان الأخرى يجعل إحدى الشخصيات الثانوية فى التاريخ — التى لا يعرف العالم عنها الكثير — الشخصية الرئيسية فى قصته ، وذلك لكى يتمكن من الإضافة إلى الواقع كيفما شاء ، كما فعل فى كنلورث .

أما اللغة التى اختارها ليعبر بها عن هذا اللون من القصص فهى وسط بين التكلف والبساطة ، أو بين القديم والحديث . لأن القديم وحده ينفر القارئ ، فكان يؤثر أحياناً لغة الحديث العادى غير أنه يعزز تأثيرها بالشعر ، وبشىء من التعبير الكلاسيكى القديم الذى لا مندوحة عنه لنقل صورة الماضى إلى القارئ المتوسط فى عهده .

وكان أقوى ما يدفع سكوت إلى الشهرة الأدبية رغبته فى تصوير عهد الاقطاع تصويراً صحيحاً . وكان يفعل ذلك فى مستهل حياته بنظم القصائد ، فلما بزه اللورد بيرون فى هذا الميدان انتقل إلى ميدان آخر — ميدان القصة — حتى لا يستطيع أديب من الأدباء أو كاتب من الكتاب أن يباريه فيه .

إن كتابة القصة تدين لسكوت بالشىء الكثير . وإذا كانت القصة عند رتشاردسن وفيلدنج وسمولت فى القرن الثامن عشر مرآة تعكس أساليب الحياة فى ذلك القرن ، فقد كانت فى يد سكوت مرآة تعكس الماضى البعيد الذى كان المعاصرون لعهده يجهلونه كل الجهل . استمد الأسماء والتواريخ من كتب التاريخ القديمة وحولها إلى أدب رائع لذة للقارئين . وكأنه أعاد إلى الجثث البالية الروح والحياة . أو كأنه ساحر يسير وسط القبور يبعث الحياة فى الأشباح من ساكنيها . أنه بحق رائد القصة التاريخية فى الأدب العالمى .

وربما بزه غيره فى مضمار إحياء التاريخ . غير أن سكوت كان فناناً ولم يكن باحثاً أو دارساً . فلم يتقيد بتسلسل حوادث التاريخ ، وقد يبتكر الموقف التاريخى كله . يعطى نفسه الحرية فى رسم الأزياء والأشكال ، ولعله بهذا — أو برغم هذا — قد نجح فى إحياء الماضى .

كان يرى خلف سير التاريخ نمطاً متكرراً ، أدركه وحاول أن يفسره . التاريخ عنده حركة نضالية تعبر عن تحكم الأقدار فى البشر ، وليس مجرد سجل للوقائع . وهى نظرة كلاسيكية قديمة . والأشخاص فى رواياته تعرف دورها تماماً ، ويصور مسلكهم فيحسن التصوير ، ولكنه لا يتعمق فى الأسباب والدوافع ، ولا يحاول أن يكشف عن سيكولوجية الأشخاص — ولعل هذا هو الفارق بينه وبين كاتب القصة التاريخية فى العصر الحاضر .

يمجد الماضى لأنه يرى فى القرون الخوالى القيم التى كانت تقضى عليها الحياة الحديثة . فكان يعشق روح العصور الوسطى التى يعتقد أنها كانت تربط الأفراد بالأخوة المسيحية . وكان يستاء حين يرى الناس ينبذون هذه الرابطة فى سبيل مادية لا روح فيها ، وليس لها عنده قدر يذكر .

والحرية الاقتصادية التى سادت عصره لا تحقق فى ظنه حرية الفرد بمقدار ما تحث على الأنانية والاستهتار بحقوق الآخرين . وكان سحر الماضى البعيد — فوق كل شىء — يفعل فيه فعل السحر ، فيجذبه مذهولا نحو جلال يفوق الخيال ، نحو مجد وعزة وثراء . وكأنه أراد أن يحتفظ فى قصصه بوميض هذا الماضى قبل أن يخبو ضياؤه أو يختفى عن الأنظار .

كان محافظاً يحب ترسم التقاليد ، بيد أنه كان يدرك الدور الذى لعبته العامة فى سير التاريخ ، ولم يحط

قط من شأنهم . وكان يؤمن بالكنيسة الرسمية وبالدولة ، يدين لكليهما بالولاء والتقدير والمحبة .

وقد عاشت سيرته عطرة مائة عام بعد وفاته . ثم أخذت قيمته فى الأدب تهبط تدريجاً فى القرن العشرين لأن البلاغة لم تعد أسلوب العصر ، كما اهتم الناس بالحقيقة أكثر من اهتمامهم بالخيال ، وبالدقة أكثر من المبالغة . وحكم عليه النقاد بمثالبه أكثر مما حكموا عليه بمزاياه . والقراء المعاصرون من الشباب يرون نساءه مقدسات فلا تعجبهم ، ومناجاته مسهبة فلا يجدون لها الوقت ، وأبطاله ضخاماً لا يمثلون الواقع ، وأوصافه لمشاهد الطبيعة طويلة تبعث فى النفوس السأم .

ولشدة اهتمامه بالتحدث عن الأمراء والنبلاء نسى النقاد أنه اهتم كذلك كثيراً بالعامة من أهل أسكتلندة . ولم يعد لذلك — بالرغم من كل ما أداه — موضع اهتمام قراء القصة التاريخية فى العصر الحديث . ويرجع ذلك — فوق ما ذكرنا — إلى أن بعضاً من تلاميذه تفوقوا عليه فى نفس اللون الأدبى الذى حاول أن يخلقه من عدم . كما يرجع أيضاً إلى أنه كان فى حياته يأبى أن يأخذ نفسه مأخذ الجد ككاتب وأديب . وكان يهمه أن ينعته الناس « بالرجل المهذب » أكثر مما ينعتونه بالكاتب والأديب . وهى فلسفة فى الحياة لا تتفق ودقة الصناعة التى يتطلبها الكاتب لكى يحول السرد القصصى إلى عمل فنى . فلم يكن — مثلا — كتولستوى يكرس سبع سنوات من حياته لكى يخرج قصة « الحرب والسلام » . بل كان يكتب على عجل ولا يأبه بالمراجعة ولا يكترث البتة بالشكل . ويكفيه كما قال أحد النقاد « أن تبدأ الرواية بداية رائعة ، ثم تتقدم تقدماً طبيعياً ، فتشتد إثارتها لاهتمام القارئ كلما تدفقت حوادثها من بين أنامل الكاتب » .

وقد يسترد سكوت مكانته الأدبية . ولا عجب ان حدث هذا فأعجب منه قد حدث فى تاريخ الذوق الأدبى .